أحــــزان الوجــود

محمد سعد زغلول سالم

الخميس ١٦ يناير ١٩٦٩

فما أجملَ ما كانت تفيضُ به جَنَباتُ دُنياه الوحيدة فى خياله من معالم ومعانى وما أَشْقَى ما كان يَعْتَمِل فى قلبه وفى عقله من مشاعر وأفكار تبعثُها فى شغاف فؤاده وفى حنايا وجدانه أحاسيسُ اللوعة والأسَى كُلَّما وقعت عيناه على هذه المعالم وهى لا تغيبُ أبداً عن ناظِرَّيْه أو كُلَّما تأمَّلْ هذه المعانى وهى ذائبة على الدوام فى أفكاره. ففى كلِّ ركن من أرجاء دنياه الوحيدة فى خياله وجنباتِها المُترامِيَة الأطراف بغير نهايةٍ أو حدود وفى كلِّ لحظةٍ من أيامه التى يحياها فيها على الدوام كان يرى ويسمع ويُحِسُّ تلك المعالم وتلك المعانى التى يتمثَّلُ له فيها سِحرُ الوجود وفتنة الشتاء ومصير القمر وهَمْس النجوم وأسرار البحار ومصادرُ السعادة وأسباب التعاسة وأشجان الربيع وقنوط الخريف وأحلام اليقظة وجمال الحياة وأحزان الموت وشقاء الأحياء ومباهج الحُب ومواجع الفراق مثلما كانت تتملَّكه الحيرة كُلَّما ساءَل نفسه : لماذا يحيا ولماذا يكتب ولماذا يُحِبُّ وإلى متى هذا العَنَاء ؟!. فلم يكن يعرف سَبَباً ولا يفهم دافعاً لهذا الحزن القاهِر الذى يَعْتَصِر قلبه ويسحقُ عقله كلما رأي أو سمع أو أدرك أو شَهِدَ أيّاً من هذه المظاهر التى مثلما تمتلىء بها أعماقه تَعُجُّ بها الطبيعة وحياةُ البشر فى كلِّ لحظة من عُمر الزمن وفى كلِّ ركن من أنحاء هذا الوجود .!.، كان فى حقيقة الأمر يعرف الإجابة على كل تساؤلاته ولكنه لم يكن يريد ولا يتحَمَّل ولا يجرؤ على أن يَتَمثَّل حياته بعدَ آحادٍ أو عشراتٍ من السنين عندما تُوشِكُ شمسُ عُمْرِهِ على المغيب بينما هذه الأهازيج والأغنيات والأطياف والمعالم لَمَّا تزل خالدةً بجَمالِها وأشجانُها باقيةً تنتظرُ الوافِدينَ الجُدُدْ من البشر وهم يتدَّفقون أمامه بغير إنقطاع من رحِم الوجود إلى جحيم الحياة الفاتن الأخَّاذ بينما ينهَمِك هو فى لَمْلَمَة بقايا مشاعره وأفكاره وآماله وذكرياته إستعداداً للرحيل ومغادرة هذا الجحيم الساحِر الجميل إلى حياته الأخيرة التى لا يعرف كيفَ سيمضى إليها أو أينَ ستكون أو إلى متى سيظلُّ فيها أو إلى أينَ سيذهب بعدَها .!.، فهذا هو السبب الحقيقى الكامِن وراءَ هذه الحسرة القاهِرَة التى كانت ولما تزل تَطْغَى على كلِّ مشاعره وأحاسيسه إزاءَ كلِّ معالم ومعانى هذه الحياة وهذا الوجود ، وهو أيضاً ـ كما كان يعتقد يَقيناً ـ المصدر والمنبع لكلِّ أفكاره وتخيُّلاته وأحلام يقظته الغريبة التى تلازمه منذ بدأ عقله فى التفكير والوعى والإدراك وبدأ خياله فى خلق دنياه الوحيدة هذه بداخله والتى مازالت تُلازِمُهُ وتنشرُ ظلالَها على تخيُّلاته عن طبيعة حياته الأخيرة تلك التى كان يأملُ أن تكونَ فى الجنة بغير مُبرِّرات لهذا الأمل سِوى حُسْنْ ظنِّه ورجائه فى رحمة الله. فقد بَلغت غرابة هذه الأفكار والتخيُّلات وأحلام اليقظة التى لا تفارقه حَدَّا يثيرُ دهشته وتساؤله عن مَدى سلامة عقله أو جنونه .!.، فكثيراً ما كان يُمْعِنُ فى الطمع فى رحمة الله فيدعوه أنْ يستطيعَ القراءةَ والكتابةَ فى الجنة كما يشاء .!!. وأن يستطيعَ تأمُّلَ أحداثَ وذكرياتِ حياته الماضية وأن يحياها مرةً أخرى بل مرَّاتٍ عديدة لا تنتهى كلما أَرَادَ ذلكَ هناك .!!. وأن

يرى حوله دائماً ما كان يحياهُ فى دنياه الوحيدة فى خياله وما كانت تمتلىء به جنباتُها مِن سِحْرٍ وفتنةٍ وجَمال يأخذ بمجامِع قلبه وفؤاده .!!. وأن يستمع كُلَّما شاء إلى أغنيات الحُب والهَوَى وأهازيج العِشق والغرام التى كانت ومازالت تدفع بالدموع الغزيرة إلى مَآقِيه عندما تترامَى نغماتُها الحزينة الباكية إلى أسماعه وتنفذ بأشجانها إلى شغاف قلبه ووجدانه !!. كان يُدرك تماماً مَدَى غرابة وشذوذ هذه الأفكار والمشاعر وهذه الأحلام والأمنيات الأشدَّ غرابةً وشذوذاً عن المألوف التى تتملَّكه وتستبِّدُّ به وتسيطر عليه وتفرض آثارَها على مبادئه ومفاهيمه وسلوكه مع البشر وتصرُّفاته تجاهَهُم ولكنه لم يكن يعرف كيفَ السبيل الى مُعالجة ذلك ، رُبَّما لأنه لم يكن يرى فى ذلك أيَّ أذى أو ضرر يمكن أن يَحيقَ بأحَدٍ من جرَّاء ما يعتمل بداخله من مشاعر وأفكار ، ورُبَّما لأنه كان يستمتع أيَّما إستمتاع بهذا الوجود الغريب المُذهِل العجيب من الأفكار والمعانى وهذا العالم النادِر والفريد من التصوُّرات والتخيُّلات وهذه الحياة الفاتنة الأخَّاذة التى تمتلىء فقط بالمعالم التى يعشقُها ويريدُها من حَوْله وتفيضُ فقط بالأحياء الذين يحِبُّهم ويَودُّ وجودَهم على مَقْرُبَةٍ منه على الدوام ، ورُبَّما لأنه كان يُحِسُّ أنَّ تحقيقَ هذه الأحلام والأمنيات فى حياته الدنيا يستحق العملَ والإلتزام لنيل رضاء الله حتى يكونَ شفيعاً لحُسْن ظنه به ورجائه فى رحمته وغفرانه فى حياته الأخيرة ، ورُبَّما للعديد من الأسباب الأخرى القابعَة بداخله والتى لم يَحِن بعدُ أوانُ كَشْفِها حتى أمامَ نفسه ، فما كان أغربَ عالمه الخاص الوحيد الذى يحيا فيه فى أعماقه .!. وما أغربَ نفسه التى جاء بها أو جاءت به إلى هذه الحياة .!. ،.

